الفصل السابع

٤٣ - فلسطين عباسية :

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وهم الذين نهضوا على بنى أمية فاستأصلوا دولتهم من الشرق وبنوا دولتهم عَلَى أنقاضها فاخضعوا العصبية العربية وأذلوا مضر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملوك والعرب أسراهم.

تشكلت الدولة العباسية وبعثت ولاتها إلى الأمصار فكان وإلى سورية وفلسطين عبد الله بن على ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتعين صالح بن على حاكمًا على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن على وكلاهما عباسى فظل تابعًا له حتى خرج عبد الله على المنصور وُغلب فتعين صالح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها بإقبالها عَلَى العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها فى الأقاليم وتحسين المعارف ومساعدة المؤلفين وإدرار النفقات عليهم وتشويق الأدباء وتشجيعهم الناس للإقبال عَلَى حرفة الأدب.. الخ.

وقد عامل هرون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوى إليه زوار اللاتين وفى سنة ٧٩٦ م أهدى إلى شرلمان ساعة وفيلاً وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة وتعهد إليه بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفى زمن خلافتى المأمون والرشيد زهت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبى سياسة وآدابًا وعلمًا لأن مملكتهما امتدت من الأندلس وشمال إفريقية إلى شمال البحر الأسود والصين ونصف الهند ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقرة فكثر

العلماء والأدباء فى أيامهما وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا إلخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكاتب.

وفى سنة ١٨٦ هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضربة واليمانية وسببها أن رجلاً من بنى ألقين خرج بطعام له يطحنه فى الحى بالبلقاء فمر بمقثأة لرجل لخمى فتناول منها بطيخة فشتمه صاحبها فتضاربا وانحاز لكل منهما قومه فكبر الخطب وقتل رجل يمنى وتداولوا الصلح بينهم فأبى اليمانية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى ألقين فقتلوا منهم ٣٠٠ شخص فثاروا واستنجدوا قيسًا فأجابوهم وساروا معهم إلى الصواليك من أرض البلقاء فقتلوا من اليمانية ٨٠٠ شخص فتحزبت الحكومة إلى اليمانية وساعدتهم فانتصر عليهم أبو الهيذام زعيم المضربة وفرق جموعهم وفى سنة ١٧٧ هـ استعلت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتلافاها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع المأمون أخاه المعتصم «أبا إسحق» الشام ومصر وفرض عَلَى دمشق وحمص والأردن وفلسطين ٤٠٠٠ جندى يقدمونها لغزو الصائفة وقطع للفارس ١٠٠ درهم راتبًا شهريًا وللراجل ٤٠ درهمًا. وفى سنة ٢٢٧ هـ سنة/ ٨٤٢ م خرج أبو حرب المبرقع عَلَى المعتصم واعتصم بجبال الأردن. وسبب مخالفته، أن بعض الجند أراد النزول فى بيتهِ وهو غائب فمنعتهُ امرأته فضربها الجندى بسوط فأصاب ذراعها. فلما رجع إلى منزله شكت إليهِ ما فعل بها الجندى فاخترط سيفهُ وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتفوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع فى قومهِ فأرسل إليهِ المعتصم رجاء بن أيوب الحضارىّ بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه فى عالم كثيرة كره مواقعته وتربص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من معهُ من الزراع إلى أشغالهم وبقى فى نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه وابن بيهس اسيرين. ومن أمعن النظر فى هذه الثورة وجد أن سببها الظاهرى غير كاف لإعلانها لأنهُ ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيلبيهِ جمع غفير ويحارب لأجله الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هى أن الخليفة

المعتصم استكثر من الجنود الأتراك فعبثوا بعادات البلاد وطبائع أهلها فسخط العرب عَلَى الخليفة وحكومته تعصبًا وغيرةً إلى أن نهض أبو حرب فشجعوه ونصروه. فلو لم تكن الغاية واحدة والكره مستحكمًا فى نفوس الجميع لما اتفقوا عَلَى خلع طاعة المعتصم الجانى على العرب والحكومة العباسية باستكثاره من أخواله الأتراك فى بلاطه ومنحهم السلطة الواسعة حتى تحكموا فى الدولة واستبدوا بالملك واستأثروا بالأموال فكان منهم الجند والقواد والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرباء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.

وفى سنة ٢٥٢ هـ عقد لعيسى بن الشيخ سليل الشيبانى على الرملة فانفذ خليفته ابا المغراء واستولى على جميع فلسطين وتغلب عَلَى دمشق وأعمالها واستبد بالأموال وقطع ما كان يحمل للخليفة. فذهب سنة ٢٥٦ هـ إليه أماجور وقتل ابنه منصورًا وأخذ منهُ دمشق. ولم تدم عظمة الدولة العباسية طويلاً لأنها أسست من عناصر مختلفة متباينة الميول والطبائع والأخلاق فاستهوى الخلفاء مواليهم ورقوهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير فلم يخلصوا إليهم ولم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوا ذاك الجميل وأنكروا حسن الولاء فسلبوا الخلفاء أبهة الملك وجلالته وسيطرته وأبقوا اسمه فأصبح الخليفة آلة فى يدهم محدود النفوذ محجوز الإرادة ضعيف القوة فإذا ما حنقوا منهُ أو توسموا فيه الحزم أو النزوع إلى الاستقلال خلعوه أو سملوا عينيه وقد شعر المتوكل بنفوذ الأتراك والأعاجم فهم بنقل العاصمة من بغداد الفارسية التركية إلى دمشق العربية تخلصا من جورهم وفرارًا من غطرستهم فانشده يزيد المهلبى:

أظن الشام تشمت بالعراق ... إذا عزم الإمام عَلىَ انطلاق

فان تدع العراق وساكنيها ... فقد تبلى المليحة بالطلاق

وقيل انهُ اسنوبأ دمشق وتركها فرجع إلى العراق والأصح أنهُ خشى نفوذ الأتراك وتخوف ان يخلعوه إن لم يدارهم فصدق ظنه وقتلوه فى بغداد وقد تمادوا فى العسف والاستبداد فاحتقروا الخلفاء واستصغروهم وسلبوهم حريتهم الشخصية حتى قال الشاعر:

خليفة فى قفص　　بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له　　كما تقول الببغا

وقد شددوا فى الحجر على الخليفة المعتمد فكان يطلب الدرهم فى خزانته فلم يجده فقال:

أليس من العجائب أن مثلى　　يرى ما قل ممتنعًا عليهِ
وتجبى باسمهِ الدنيا جميعًا　　وما من ذاك شىءٌ فى يديه

ومن تبصر قليلاً ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدما لا يملك شيئًا فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقاب عرف أن كل أمة لا تسهر عَلَى مستقبلها ولا تحافظ على كيانها فمصيرها إلى الدمار.